- 1 -

فرساي على ضفاف دجلة

يمكنـك -على النقيض من أي مـكان آخر في بغداد تقريباً- أن تتناول الطعام في كافتيريا القصر الجمهوري لستة أشهر دون أن يشمل ذلك الحمص، أو الخبز المرقوق، أو الكبـاب. كان الطعـام أمريكيـاً على الدوام، بنكهـة جنوبية في كثير مـن الأحيان. احتـوى البوفيه على البرغل، وخبز الذرة، ولحـم الخنزير: نقانق على مائدة الإفطار، الهـوت دوغ على مائدة الغداء، وشرائح لحم الخنزيـر على مائدة العشاء، ناهيك عن شطائـر البرغر بلحم الخنزير المقدد والجبن، وأخـرى تحوي المشوي منهما، وعجة لحم الخنزير المقدد. تعين على المئات من أفراد السكرتاريا والمترجمين العراقيين، العاملين لدى سلطة الاحتلال، أن يتناولوا وجباتهم في قاعة الطعام. كان معظمهم من المسلميـن، وقد تأذى شعور العديد منهم لوجود لحم الخنزير، ولكن متعهدي المطبخ الأمريكييـن واصلـوا تقديمه. انحصر دور الكافتيريا في تأميـن متطلبات الأمريكيين مما يشتهونه من الطعام المشبع بالدهون، الحاوي على كثير من السعرات.

لـم تحوِ مائـدة السلطات على أي ممـا أنتجته أرض العراق مـن الخيار النضر أو الطماطـم الطازجة. تنص قوانيـن الحكومة الأمريكية على أن يتـم شحن كل شيء، بمـا في ذلك الميـاه المستخدمة لسلق الهوت دوغ، من قبل مزودين معتمدين في دول أخـرى. يتـم تأمين الحليـب والخبز، علاوة علـى معلبات البازلاء والجـزر، بواسطة شاحنـات تأتي من الكويت. تتدفق حبوب الإفطار جواً مـن الولايات المتحدة - حيث يساعد توافرها على مائدته في رفع المعنويات.

لـم تكن الكافتيريا موجودة في القصر حين قـدم الأمريكيون. كان صدام حسين يتنـاول مـا لذَّ وطاب فـي غرفة طعـام منمقة خاصـة، بينما يأكل خدمـه في مطابخ صغيرة. اختار المهندسون المعينون لتحويل القصر إلى مقر للاحتلال الأمريكي قاعة المؤتمرات ذات الأرضية الرخامية، بحجم صالة للتمارين الرياضية؛ لتستخدم قاعةً

للطعام. جلبت شركة هاليبرتون -التي تم التعاقد معها لإدارة القصر- العشرات من الطاولات، والمئات من المقاعد، وعشرين من البوفيهات المغطاة بالزجاج. تناول الأمريكيون طعامهم، على مدار الأسبوع، تحت ثريات صدام الكريستالية.

اكتست الطاولات بمناديل حمراء وبيضاء. كانت المقاعد مزودة بوسائد حمراء داكنة. زينت الشراشف المثنية مائدتي السلطات والحلويات، حيث كانت الأخيرة تعج بالكعك والبسكويت. كانت الأرضية تلمع بعد كل وجبة.

زينت جدارية لمركز التجارة العالمي أحد المداخل. أحيط البرجان فيها بجناحي نسر أقرع مبسوطين. وضعت شعارات كل من أفرع القوات المسلحة الأمريكية - الجيش، والقوى الجوية، والمارينز، والبحرية - على زوايا الجدارية المختلفة. احتوى منتصفها على شعاري دائرتي الشرطة والإطفاء في مدينة نيويورك، بينما اعتلت قمة البرجين عبارة «حمداً لله على دعم قوات التحالف، ومقاتلي الحرية في الوطن والخارج».

احتوى مدخل آخر من المداخل الثلاثة على لوحة إعلانات، ورد فيها الآتي:

دراسة الإنجيل - الأربعاء، عند السابعة مساء.

تشعر بالتوتر؟، تعالَ وزرنا في عيادة معالجة التوتر الناتج عن القتال.

للبيع: سكين صيد بحال جيدة.

كاميرا مفقودة، مع مكافأة لمن يجدها.

تم تحويل المطبخ -الذي كان يقدم أشهى الوجبات لصدام- إلى مركز تقليدي لمعالجة الطعام، يحوي مقلاة عميقة ضخمة، وأوعية للخفق بحجم أحواض الاستحمام. كانت هاليبرتون قد تعاقدت مع العشرات من الباكستانيين والهنود للطهي، والتقديم، والتنظيف، دون أن يشمل ذلك العراقيين. لم يفسر أحد السبب وراء ذلك مطلقاً، ولكن الجميع كانوا على علم به: كي لا يقوم العراقيون بتسميم الطعام.

ارتدى الباكستانيون والهنود قمصاناً، ذات أزرار بيضاء، وصدريات سوداء، وأربطة عنق سوداء، وقبعات ورقية بيضاء. عمل المتعهد الكويتي الفرعي -الذي

احتفـظ بجوازات سفرهم، وحصل على مهمش ربح وفير من كل منهم- على تلقينهم المصطلحـات الأمريكيـة. أجابني أحد الهنـود بحدة، حين طلبـت البطاطا المقلية المعروفـة (بالفرنش فرايز)، قائلاً: «لا توجد لدينـا (الفرنش فرايز) يا سيدي، بل (الفريدوم فرايز) فقط»*.

اتسـم التموضع داخـل الكافتيريـا بالاستقطاب الـذي يميز مقاصـف المدارس الثانويـة. بقي الموظفـون العراقيون برفقة بعضهـم بعضاً، وقد كانـوا يتناولون على مائـدة الغداء مـا تحويه ثلاث وجبـات من السعـرات الحرارية. اعتـادوا الاستهزاء برؤسائهم الأمريكيين، بلا مخافة، أثناء تناول الطعام. لم يكن كثير من الأمريكيين فـي القصر يتحدثون العربيـة بطلاقة، بحيث كانت تجمعهم طاولـة واحدة، مع بقاء عدد من المقاعد الخالية حولها.

عمل الجنود، والمتعهدون الخصوصيون، والمرتزقة على عزل أنفسهم عن البقية كذلك، كما فعل ممثلو «تحالف الراغبين» – البريطانيون، والأستراليون، والبولنديون، الإسبـان، والإيطاليون. انخرط المدنيـون الأمريكيون العاملون لدى حكومة الاحتلال في «شلل» خاصة بهم: الموظفون السياسيون المهمون، والخريجون الجامعيون الجدد في العشرينيات من العمر، والخبراء الذين وصلوا بغداد في الأسابيع الأولى للاحتلال. كانوا يتقيدون، أثناء الحديث على موائدهم، بما يمكن اعتباره بروتوكولاً ضمنياً. كان مـن المناسب على الـدوام أن يثنوا على «المهمة» – حملـة إدارة بوش لتحويل العراق إلـى ديموقراطية مسالمـة، وحديثة، وعلمانية، يتوافق فيهـا الجميع بغض النظر عن طوائفهم أو أعراقهم، ناهيك عن التذمر مما أوقعه صدام من خراب في البلد، ووضع الاقتراحـات عن كيفيـة النهوض به مجدداً. لـم يكن أحد يشكك، بـكل الأحوال، في السياسة الأمريكية ما لم تربطه علاقة وثيقة بجليسه على المائدة.

إن كان لديك ما تشكو منه بخصوص الكافتيريا، فسيتعين عليك التحدث إلى مايكل كول. كان المسؤول عن خدمـة الزبائن لدى هاليبرتون، وكان بمقدوره تفسير السبب

* عمد الأمريكيون إلى تغيير اسم البطاطا المقلية من «الفرنش فرايز» إلى «الفريدوم فرايز» على ضوء الخلاف الناشب بينهم وبين الفرنسيين عن الحرب على العراق. (المترجم).

الكامن وراء عدم احتواء مائدة السلطات على المنتجات العراقية، أو استمرارية بقاء لحـم الخنزير على لائحة الطعـام. إن أردت طلب نوع مختلف من الحبوب على مائدة الإفطار، فسيصغي إليك. لم يكن مظهر كول يوحي بأنه مسؤول في منطقة قتال. كان نحيلاً، في الثانية والعشرين من العمر، ذا جبهة ملأى بالدمامل.

غـادر الجامعة منذ مـا يقل عن العام، وكان يعمل مسـاعـداً ثانوياً لعضو جمهوري فـي الكونغرس عـن فيرجينيا، حين استرقت نائبة رئيس هاليبرتـون السمع إليه وهو يتحـدث إلى أصدقائه، في إحدى بارات آرلينغتون، عن تعاطيه مع عدد من الناخبين المستائيـن. تأثرت جراء ذلـك للغاية، بحيث قدمت نفسها إليـه. مازحها قائلاً: إنه مستعـد للتطوع إن كانت بحاجـة لمن يعمل في بغداد. عرضت عليه هاليبرتون وظيفة بعد مضي ثلاثة أسابيع، لتطلب سيرته الذاتية فيما بعد.

لـم يتناول كـول منتجات لحم الخنزير فـي قاعة الطعام على الإطـلاق. علم بأن العديـد مـن النُّدُل كانوا مـن الباكستانيين المسلمين، وقد تملكـه شعور رهيب جراء اضطرارهـم إلى تقديم ما يؤذي شعورهم مـن الأطعمة. كوفئ الرجل على ما أظهره مـن احترام عبر تلقيه الدعوات لزيارة المقطورات التـي كانوا يقيمون بها، ضمن ما يستحضـر روايات ديكنز من أوضاع. لم يتعين عليهم التقيد بالقواعد الأمريكية فيما يتعلـق بالطعام. امتـلأت مطابخهم بالمنتجـات المحلية، وقد اعتـادوا طهي ما يعج بالتوابـل من الكاري، حيث حاز مذاقه على استحسان كول بما يفوق أيًّا من الأصناف التـي تحويهـا الكافتيريا. فكر الأخيـر بتقديم أطعمـة هنديـة - باكستانية في قاعة الطعام مساء، ليتذكر أن القصر لم يكن يعد ما ينتمي إلى أعراق معينة من الأطعمة. تحدث كول، بذلك الصدد، قائلاً: «يجب أن يشعر الناس، عبر ما يطبخ، بأنهم عادوا إلى الديار»، وقد كان يفترض بها أن تمثل، في تلك الحالة، موضعاً ما إلى الجنوب من خط ماسون - ديكسون*.

* خط الحدود الفاصل بين بنسلفانيا وماريلاند، الذي يمثل الحد الشمالي للولايات التي كانت تطبق نظام العبودية. (المترجم).

تجسدت مهمة كول في تسيير الأمور داخل الفقاعة، لضمان أن الأمريكيين الذين تركوا ديارهم للعمل مع إدارة الاحتلال يشعرون بالارتياح. مثّل الطعام جزءاً من ذلك بالتأكيد، ناهيك عن الأفلام، والفرش، وخدمة تنظيف الملابس. عمل كول على تأمين كل ما يطلب منه، بغض النظر عما يحمله من أهمية في نظره. سيجيب بذلك الصدد، قائلاً: «حسناً سيدي. سنبحث في ذلك»، أو «آسف لشعورك الشديد بالاستياء. سنحاول حل المشكلة بأقرب ما يمكن».

مثل القصر مقر سلطة الائتلاف المؤقتة، إدارة الاحتلال الأمريكي في العراق. أدارت سلطة الائتلاف المؤقتة شؤون الحكم في العراق، منذ نيسان/ أبريل 2003 حتى حزيران/ يونيو 2004، عبر سن القوانين، وصك العملة، وجمع الضرائب، وتأهيل قوات الشرطة، وإنفاق عائدات النفط. تجاوز عدد موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة، في ذروة عملها، ألفاً وخمس مئة موظف في بغداد، حيث كان جلهم من الأمريكيين، المتسمين بالتنوع: رجال أعمال فاعلون في الحزب الجمهوري، ومتقاعدون راغبون في تذوق طعم المغامرة للمرة الأخيرة، ودبلوماسيون درسوا العراق سنوات، وخريجون جامعيون جدد ما حصلوا على وظائف بدوام كامل قط، وموظفون حكوميون راغبون في العلاوة المقدرة بخمسة وعشرين بالمئة من رواتبهم جراء العمل في مناطق القتال. تمت قيادة سلطة الائتلاف المؤقتة من قبل الحاكم الأمريكي للعراق، لويس بول بريمر الثالث، الذي كان يرتدي على الدوام بزة زرقاء وحذاء عسكرياً فاتح اللون، بما يشمل أيام الصيف العراقي القائظ. كان يحاط من قبل حراس أشداء، بمدافعهم الرشاشة، أينما ذهب، بما لا يستثني الحمام في القصر.

كان القصر كما فرساي على نهر دجلة. شيد بواسطة الحجر الرملي ذي الألوان الزاهية والرخام، ناهيك عما يحويه من أروقة كبيرة، وعمد ضخمة، ودرجات لولبية. أطلت تماثيل نصفية برونزية ضخمة لصدام، مرتدياً زي القتال العربي، من الزوايا الأربع للسطح. وقعت الكافتيريا في القسم الجنوبي، قريباً من كنيسة تحوي جدارية، بحجم لوحة إعلانات كبيرة، لصاروخ من طراز سكود يشق عنان السماء. احتوى الجناح الشمالي على قاعة رقص ضخمة، مع شرفة تطل على ساحة الرقص. تمثل

قلب القصر بقاعة رخامية كبيرة، تظللها قبة فيروزية. اتخذ المكان برمته مظهراً فوضوياً، عقب وصول الأمريكيين، مثل الشركات التي تبدأ أعمالها حديثاً. وضعت الحواسيب، من طراز «ديل»، على مكاتب خشبية مزخرفة، مفصولة بواسطة عوازل يكسوها القماش. تداخلت الأشرطة عبر القوالب المذهبة، وتدلت الألواح البيضاء القابلة للمحو من الجدران الزجاجية.

اصطفت مجموعة من المراحيض المتنقلة على طول ممر خلفي خارج القصر. صمم الأخير كي يتباهى به صدام عند استقبال الشخصيات الزائرة، وقد افتقر إلى ما يحتاجه المئات من شاغليه الجدد من خزائن. لم يحتوِ القصر كذلك على ما يكفي من حيز للمهاجع. اضطر معظم القادمين إلى النوم في أسرة من طابقين في الكنيسة، وهو ما استحضر صور المستشفيات الميدانية إبان الحرب العالمية الثانية.

كانت القواعد داخل القصر، بغض النظر عن اختلاف المظاهر تماثل تلك المطبقة في أيٍّ من المباني الحكومية في واشنطن. حمل الجميع بطاقات تعريفية، وتعين عليهم احترام قواعد اللياقة في أروقة مقرهم المظللة بأسقف مرتفعة. أذكر حين سمعت جندياً وهو يعاتب موظفة تهرع إلى أحد الاجتماعات، قائلاً: «لا يجب أن تركضي في الممر يا سيدتي».

تم التعاقد مع الشركات الخاصة بقدر ما أمكن. عهد إلى شركة في نورث كارولاينا بمهمة إقامة مجالس مدن ومجالس بلدية مقابل 236 مليون دولار، بينما أوكلت مهمة حماية الحاكم الأمريكي إلى حرس خاص، يجني الواحد منهم ما يفوق الألف دولار يومياً. تلقت هاليبرتون مئات الملايين من الدولارات جراء إدارة القصر - إعداد الطعام، وتغيير مصابيح الإنارة، والغسيل، وري النباتات.

تم التعاقد مع هاليبرتون لتقديم «خدمات معيشية» لسلطة الائتلاف المؤقتة. ما انفكت تلك الخدمات تزداد اتساعاً. تمثلت الحاجات الأساسية لأوائل القادمين الجدد من الأمريكيين إلى بغداد، عقب أسابيع من الإطاحة بحكم صدام، في المأكل والمشرب، وخدمة تنظيف الملابس، وتكييف الهواء. تزايدت المطالب

بحلول وصول كول، في آب/ أغسطس 2003، بعد مضي أربعة أشهر على الغزو. جهز مقر إقامة الحاكم الأمريكي -كما اقتضت الحال- بما يماثل قصور رؤساء الدول من أثاث وزخرف. احتاجت الحانة التي تديرها هاليبرتون في فندق الرشيد إلى طاولة «للفيشة» (لعبة كرة القدم التي تمارس بواسطة المقابض)، ناهيك عن قاعة المؤتمرات الصحافية التي استلزمت شاشات تلفزة عملاقة.

تحولت المنطقة الخضراء سريعاً إلى أمريكة مصغرة في بغداد. قطن العاملون في القصر جميعاً هناك، سواء أكان ذلك في مقطورات معدنية بيضاء، أم فندق الرشيد المرتفع. عمد المئات من المتعهدين الخصوصيين العاملين لدى شركات كبيكتل، وجنرال إلكتريك، وهاليبرتون إلى سكنى المقطورات هناك، كما فعل الحرس الخاص المستأجر لحماية المتعهدين. لم يسمح سوى للعاملين لدى الأمريكيين، من بين العراقيين كافة، بدخول المنطقة الخضراء، ناهيك عن القادرين على إثبات إقامتهم هناك قبل وقوع الحرب.

كان صدام أول من قرر تحويل المنطقة العقارية الرئيسة المطلة على النهر في بغداد إلى مدينة مسورة ضمن المدينة، بما تحويه من فيلات ومنازل فاخرة، ومبانٍ حكومية، ومتاجر، وإحدى المستشفيات. لم يكن يريد لمعاونيه وحراسه، القاطنين بجانب قصره، الاحتكاك بالشعب، ولم يرغب في إفساح المجال للدخلاء للاطلاع على نمط الحياة في تلك المدينة. كانت منازلها أكبر حجماً، وأشجارها أكثر خضرة، وشوارعها أكثر اتساعاً من نظيراتها في بغداد. اتسمت بعدد أكبر من أشجار النخيل، وعدد أقل من السكان. لم يكن هناك أي من باعة الشوارع أو المتسولين. لم يملك أحد أي فكرة عما كان في الداخل باستثناء أفراد الحلقة المقربة من صدام، وحرسه، وخدمه الموثوقين. كان المطاف ينتهي، في بعض الأحيان، بمن يتسكعون قرب البوابات إلى السجن. اعتاد العراقيون القيادة بأسرع ما يمكنهم؛ في الطرق المجاورة للمجمع، خشية اتهامهم بالتطفل.

كان المكان الأمثل للأمريكيين لنصب خيمهم. أحاط صدام المنطقة بجدار قرميدي مرتفع. لم يكن هنالك سوى ثلاثة مداخل للمجمع. تمثل كل ما كان ينبغي على الجيش القيام به في ركن دباباته عند البوابات، ليس إلا.

عمـل الأمريكيون على توسيع جوار صدام، بما يشمـل بضعة مبانٍ، لاحتواء مركز المؤتمرات الضخم، وفندق الرشيد الفخم، الذي اكتسب الشهرة جراء البث المباشر لمحطـة «الســي إن إن» إبان حرب الخليج فــي العام 1991. قـام الأمريكيون، علاوة علـى ذلك، بإحاطـة المنطقة بسياج على ارتفاع سبعة عشــر قدماً، وسماكة قدم من الإسمنت الصلب، تعلوه الأسلاك الشائكة.

تحولت المساحات المفتوحة إلى معسكرات للمقطورات، ذات أسماء براقة. قطن مــن عجزوا عن الحصول على غرف في فندق الرشيـد، من موظفي سلطة الائتلاف المؤقتـة، فيما دعوه «بالعزبة المطلة على حوض السباحة»، بينما سكن كول وزملاؤه مــن موظفــي هاليبرتــون «معسكــر الأمل». دعــا البريطانيــون معسكرهــم «بجروف المحيــط». شعر الأمريكيــون بالحزن علــى البريطانيين، في بدايــة المطاف، لوقوع مقطوراتهــم فــي مرآب مغطى، مع كل ما بــدا عليه من ظلمة وبؤس، ليتمنى الجميع سكنــى «جــروف المحيــط» فيما بعــد، حين بــدأ المتمــردون إطلاق قذائــف الهاون علــى المنطقــة الخضراء. ازداد حســد الأمريكيين حين اكتشفــوا أن البريطانيين لا يقيمون في المقطورات المرشحة ذاتها، بما تحويه من أثاث بلاستيكي مزود من قبل هاليبرتون، بالنظر إلى تجهيز مقطوراتهم من قبل شركة «إيكيا».

استخــدم الأمريكيــون سيــارات جديــدة من طــراز «جــي إم ســي سوبربان» في تنقلاتهم، متقيدين بسرعة الخمسة والثلاثين ميلاً المحددة من قبل سلطة الائتلاف المؤقتــة في شاخصات على الطرق الواسعة. اصطف العديد من سيارات السوبربان المتماثلــة أمام القصر، بحيث اضطــر السائقون إلى الاستعانــة بمفاتيح سياراتهم الآليــة للتعرف إليها (عمد أحد المتعهدين إلى وضــع لوحة أرقام ولاية تكساس على سيارتــه لتمييزهــا). اعتــاد الأمريكيون –عــلاوة على ذلــك، حينما كانــوا يتنقلون بسياراتهــم– تشغيل أجهزة تكييف الهواء إلى الحد الأقصى، وتثبيت أجهزة المذياع علــى الموجة (107.7 إف إم) الخاصة «براديو الحرية» المدار من قبل الأمريكيين، الــذي دأب على بث أغانــي الروك الكلاسيكية والرسائــل التحفيزية. كانت العربات تغسل كل أسبوعين في مغسل تديره هاليبرتون.

جالـت الحافلات في أرجاء المنطقة الخضــراء، كل عشرين دقيقة، لتتوقف أمام مواقـف خشبية محصنة؛ بغية نقـل من لا يملكون سيـارات، ولا يرغبون في المسير. توافرت خدمة البريد يومياً، بينما أبقت المولدات الكهربائية الأنوار مضاءة باستمرار. إن لـم يـرق لك ما يقدم فـي الكافتيريا - أو شعرت بالجوع بيـن الوجبات - فسيكون بمقـدورك الحصول على وجبة من أحد مطعمي المنطقة الخضراء الصينيين. يمكن لخدمة الغسيل الجاف، التي تديرها هاليبرتون، أن تنظف بزتك العسكرية من الغبار والعرق أثناء ثلاثة أيام. تطالب لافتة معلقة في المصبغة الزبائن بإزالة الذخيرة من جيوب ملابسهم قبل تسليمها.

لـم تطبق القوانين والأعراف العراقية داخـل المنطقة الخضراء. اعتادت النسوة ممارســة العدو الخفيف، وهن يرتدين السراويل القصيرة والقمصان الصيفية. دأب متجـر المشروبات الروحية على بيـع ما هو مستورد من الجعــة، والخمور، والكحول. عرضـ أحـد المطعميـن الصينيين خدمة التدليـك إلى جانب ما يقدمــه من أطباق «النودلز». امتلـك الصبية الذين يبيعون الأسطوانات المدمجة، قرب موقف سيارات القصــر، مخبأً سرياً لما يخفونه من بضائــع. كانوا يهمسون إليَّ قائلين: «سيدي، هل تود شراء أفلام إباحية؟».

اعتــاد معظـم الأمريكييـن السيــر مختاليــن بأحذيتهــم العسكريــة، ونظاراتهم الشمسية باهظة الثمن، ومسدسات البيريتا، من عيار 9 ملم، المعلقة في قرابها على أفخاذهم، ناهيك عن تذمرهم من الحرارة، والبعوض، والعادات المحلية.

إن كانت هنالك أي من القوانين في المنطقة الخضراء، فقد كانت أمريكية بامتياز. مــا انفك عناصر الشرطة العسكرية يوقفون السائقيــن لتجاوزهم السرعة، والقيادة تحـت تأثير الكحول. منعــت هاليبرتون موظفيها الأمريكييــن، عند وصول شحنة من خزائــن المكاتــب، من حملها أو تسليمها حتى إرسال عربــات النقل اليدوية ومشدات الظهــر إلى بغداد. تحدث كول موضحاً، حين اشتكت إحدى موظفات سلطة الائتلاف المؤقتــة، مطالبه بالحصول على خزينتها - قائلة: إنها كانت تحتفظ بعشرات الآلاف

مـن الدولارات في مرحاضـ مكتبها – قائلاً: إن هاليبرتون كانت ملزمة باتباع قواعد السلامة المهنية الأمريكية.

لـم يكن للمنطقة الخضراء أي محافظ. مثل بريمر أهم شاغليها، ولكنه لم يكلف نفسـه عنـاء متابعة الشـؤون الحياتية والأمنية فيهـا. خضعت المنطقـة من الناحية التقنيـة للقائد العسكـري المسؤول عن بغـداد، ولكنه كان يقطن قـرب المطار، ولم يقحـم نفسه فـي تفاصيل الحياة اليومية هناك. صحيـح أن أحد العقداء كان يشرف علـى الفرقة الموكلة بحمايـة المنطقة، ولكنه اهتم بتأمينهـا خارجياً بما يفوق إدارة شؤونهـا الداخليـة. إن ادعى أحـد الأمريكيين –استنـاداً إلى ما سبـق– بأحقيته في إحدى الفيلات، فلم يكن هناك من يوقفه.

اعتاد الدبلوماسيون القدامى الذين عاشوا في العالم العربي من قبل، أو سبق لهم العمل في مراحل ما بعد النزاع، طلب الأصناف المحلية من الطعام، وإظهار الاحترام لعادات البلد وأبنائه من القوى العاملة. لم يمثل أولئك الأكثرية بكل الأحوال. لم يسبق لمعظم موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة العمل خارج الولايات المتحدة على الإطلاق. كان أكثـر من نصفهم–استناداً إلى أحد التقديرات قد حصل على جواز سفره للمرة الأولـى بغية السفـر إلى العراق. لو كان يفترض بهم الاستمـرار في بغداد، فقد كانوا بحاجة إلى النمط ذاته من الفقاعات التي شيدتها شركات النفط الأمريكية لعامليها في السعودية، ونيجيرية، وإندونيسية.

عمـل كول المسـؤول عن بناء تلك الفقاعة، إلى جانـب زملائه في هاليبرتون، في غرفـة صغيرة في القصـر. حملت اللوحة المعلقـة على بابه اسم «خدمـة الزبائن». انصـرف الرجـل، حينما لم يكـن يتعاطى مع الشـكاوى، إلى وضع لائحـة الكافتيريا وجدول الحافلات في شبكة الحاسوب الخاصة بسلطة الائتلاف المؤقتة. حرص كول علـى تجديد مسرح القصر، وعرض الأفلام يوميـاً عند الثامنة مساء. حظي العنيف منها بالشعبية الأكبر، ولكنها لم تكن المفضلة بالنسبة إليه. كان يحب فيلمي لورانس العرب والرجل الثالث، الذي استند إلى رواية غراهام غرين عن فيينا ما بعد الحرب

العالمية الثانية. بدأ كول كتابة رواية، في أوقات فراغه، عن شابين توجها إلى منطقة حرب للمرة الأولى في حياتهما.

خاطبني مارك شرويدر قائلاً: «أشعر وكأنني في أمريكة مصغرة» بينما كنا جالسين قبالة حوض السباحة فيما بعد ظهيرة أحد الأيام القائظة، نرتشف المياه المعبأة في الإمارات المتحدة.

نشأت أنا وشرويدر في إحدى ضواحي سان فرانسيسكو، ولكننا لم نكن نعرف بعضنا حين كنا أطفالاً. تواصلنا في بغداد -عبر البريد الإلكتروني أولاً، ثم الهاتف، حتى التقينا شخصياً في نهاية المطاف- بعد أن انخرطت والدتانا في محادثة في متجر البقالة، لتكتشفا أن ولديهما كانا في العراق معاً. مثل شرويدر، الذي كان في الرابعة والعشرين في حينه، الفتى الكاليفورني النموذجي: كان ذا شعر أشقر مسمر متموج، ويرتدي نظارات شمسية باهظة الثمن. عمل لدى عضو جمهوري في الكونغرس في واشنطن، قبل أن يتناهى إلى سمعه أن سلطة الائتلاف المؤقتة كانت بحاجة إلى المزيد من الموظفين. أرسل سيرته الذاتية إلى البنتاغون، ليجد نفسه في القصر الجمهوري بعد بضعة أشهر.

تمثلت وظيفته في تقويم مستوى الخدمات الأساسية. عمل على إرسال تقارير أسبوعية إلى بريمر متعلقة بتقدم سلطة الائتلاف المؤقتة في القطاعات الرئيسة: كمية الميغاواتات الكهربائية التي تم توليدها، وعدد ضباط الشرطة الذين تم تدريبهم، وكمية الدولارات المنفقة على إعادة الإعمار. لم يكن يطلع على تلك التقارير سوى بريمر ومعاونيه الرئيسين، مع إرسال نسخ عنها إلى مستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس، ووزير الدفاع دونالد رمسفيلد. يقوم محللو البنتاغون، بعد أن تطلع الشخصيات الكبيرة على تلك التقارير، بتحرير المعلومات السرية الواردة فيها، قبل توزيعها على المئات من الموظفين الحكوميين العاملين في العراق. تولى أحدهم إرسالها إليَّ بصورة منتظمة. تناقض بعض ما ورد فيها -لا سيما بما يتعلق بتوليد الكهرباء وتدريب قوات الشرطة- مع الأرقام الواعدة الصادرة عن مكتب العلاقات العامة في سلطة الائتلاف المؤقتة.

عمل شرويدر على إعداد تقاريره في مكتب صغير قرب مكتب بريمر. كان يمضي أيامه - وكثيراً من أمسياته - جالساً أمام شاشة الحاسوب. سكن مقطورة مع ثلاثة من زملائه، واعتاد تناول وجباته كافة في قاعة الطعام، والتوجه أيام الخميس برفقة صديق إلى مرقص فندق الرشيد، أو أي من الحانات الأخرى. لم يغادر المنطقة الخضراء سوى مرة واحدة، أثناء مرحلة الشهرين والنصف التي أمضاها هناك منذ وصوله إلى بغداد، متوجهاً إلى «معسكر النصر»، مقر القوات الأمريكية قرب المطار.

كان يقصد «البي إكس»، المتجر المدار من قبل الجيش قرب القصر، كلما احتاج ابتياع شيء ما، حيث يشري المقرمشات، والبروتينات، وقمصان عملية حرية العراق، وأسطوانات موسيقا البوب، وغيرها من المستلزمات، أو يتوجه إلى سوق المنطقة الخضراء، المجمع التجاري الصغير المكون من سبعين من المتاجر المدارة بواسطة العراقيين المقيمين في المنطقة الخضراء. تم تشييد السوق كي لا يضطر الأمريكيون إلى مغادرة المنطقة الخضراء لابتياع أغراض بسيطة. احتوى السوق، بكل الأحوال، على متجر للحواسيب، يدار من قبل شاب بارع يدعى محمد، ناهيك عن متاجر أخرى تبيع الهواتف النقالة والأسطوانات المدمجة المهربة، أو ما هو عراقي من السلع: فبزات جيش قديمة، وأوراق نقدية تحمل صورة صدام، وأعلام عراقية تحمل عبارة الله أكبر بخط صدام. تمثل متجري المفضل في «جاي جاي لالتقاط الصور بالزي العربي»، الذي يجسد النسخة العراقية من أكشاك التصوير الموجودة في ديزني لاند.

وفرت المنطقة الخضراء، علاوة على ما سبق، أوقاتاً للمرح. تعاقدت سلطة الائتلاف المؤقتة مع ضابط يعنى برفع معنويات المقيمين، عبر توفير دروس لرقص السالسا، وحصص لليوغا، وعرض الأفلام في مسرح القصر. احتوت المنطقة كذلك على صالة تمارين رياضية تماثل بمحتوياتها وأجهزتها أفضل النوادي الصحية في أمريكة. كان بمقدور المتدينين حضور صفوف منتظمة لدراسة الإنجيل.

ما انفك النصح يوجه إلى المدنيين الأمريكيين العاملين لدى سلطة الائتلاف المؤقتة، ومن قبلها «مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية»، بعدم التوجه إلى

ما وراء المنطقة المحيطة بالقصر، بما يشمل الأشهر الأولى للإطاحة بحكم صدام - حين كان الأمريكيون يعدون محررين، ويتمكنون من التحرك بأمن نسبي داخل المدينة دون الحاجة إلى الحراس والعربات المدرعة، قبل تأجج حركة التمرد. أصر الضباط الأمنيون على افتقاد بغداد للأمن. تجسد المكان الوحيد الآمن فيما بين الأسوار، وقد مثل ذلك السبب وراء دعوة المنطقة بالخضراء.

إن أردت مغادرة المنطقة الخضراء، فقد كان يتعين عليك القيام بذلك بواسطة سيارتين، تحوي كل منهما اثنين من «المدافع الطويلة» - بنادق «الإم 16»، أو ما هو أقوى من الأسلحة. لم يبدُ ذلك منطقياً في بادئ الأمر، ولكن الهجمات على الأمريكيين أصبحت أكثر تواتراً فيما بعد، لتغدو القواعد أشد صرامة. استلزم الأمر المزيد من البنادق، والسيارات، علاوة على ما هو عسكري من المواكبات. بات العراق خطراً للغاية، بحلول قدوم شرويدر، إذ احتاج المرء إلى سبب وجيه كي يحظى بالمواكبة الأمنية، ويغادر المنطقة. لو كنت موظفاً بارزاً يرغب في زيارة إحدى الوزارات، فلن تكون هنالك مشكلة، ولكن لا مجال لمن يعمل في تقويم مستوى الخدمات الأساسية، على سبيل المثال، لمغادرة المنطقة الخضراء بغية التسوق.

لا يمكنني لوم شرويدر على عدم التنقل خارجاً. لو أراد الرجل خرق القوانين، كما فعل بعضهم، عبر المغادرة بأصغر السيارات حجماً، مع حملها لوحة أرقام عراقية، فسيتعين عليه القيام بذلك عبر أحد المخارج الثلاثة. كان الجميع يفترضون أن الأشرار يترقبون. هل سيلحظون مغادرته لو فعل؟، هل سيهاجمونه؟. لم يكن يُنظر إلى مثل تلك المخاطرة إلا بما يماثل لعبة الروليت الروسية.

لم يصدقني شرويدر حين أخبرته أنني أقمت فيما يدعوه، والآخرون، المنطقة الحمراء، وتنقلت بالسيارة بلا مواكبة أمنية، وتناولت الطعام في مطاعم محلية، وزرت العراقيين في بيوتهم.

سألني قائلاً: «ما هي الحال عليه في الخارج؟».

أخبرته عن الإقامة في فندق شيراتون عشتار البائس، الواقع على الجهة المقابلة للقصر من نهر دجلة. كانت خدمة الغرف سيئة للغاية، بحيث أقمنا مطبخنا الخاص

فــي إحدى الغرف: فــرن ذو أربعة مواقد، وثلاجة ذات غطــاء علوي، ومطحنة للحم. وصفــت المتعة الناتجة عن التجول في سوق الشورجة، أكبر أسواق المدينة، واحتساء الشاي في مقاهي القسم القديم منها. تحدثت عما دار من نقاشات عن ثقافة العراق وتاريخــه على موائد الغداء في بيوت أصدقائــي العراقيين. شعرت -كلما أسهبت في الحديث- بأنني أصف الحياة على كوكب آخر.

يمكــن بالفعــل اعتبــار الحياة فــي بغــداد الحقيقية - نقــاط التفتيشــ، والمباني المفجرة، والازدحام المروري الخانق - وكأنها حياة في عالم آخر بعيد عن المنطقة الخضــراء. لم يكن بالإمكان سماع أبواق السيارات، أو إطلاق النيران، أو الأذان عبر أســوار المنطقة. لم يشعر سكان القصر بما يصيــب أفراد القوات الأمريكية العاملة فــي الخارج من خــوف، إلا فيما ندر. لم تزكم أنوفهم بالدخــان الكثيف المنبعث من السيــارات المنفجرة. غمــر الحرمان وانعدام القانون إحدى أقــدم مدن العالم حول أسوار المنطقة الخضراء، ليسود الهدوء والأمن داخل تلك الأرض الأمريكية.

لم يتعين على أي من قاطني المنطقة الخضراء، بغية رؤية العراق الحقيقي، سوى اختلاســ النظر من فوق أكياس الرمل التي تحمــي الجنود من الشظايا، عند مداخل المنطقــة. تستحضر نقطة التفتيشــ الثالثة، في الشارع الواقع أمام مركز المؤتمرات وفنــدق الرشيد، ما هو مهجور من الأراضي إلــى الذاكرة: كتل إسمنتية تقطع ما كان يمثــل طريقاً سريعة من ثمانية مجازات، وأشجاراً ميتة مصطفة على طول الرصيف، وفــوارغ قذائــف وطلقات، ومخلفــاتِ مــؤن عسكرية، وإطــاراتٍ مثقوبــة مبعثرة على الأرضــ، وأســلاكاً شائكة ممتدة فــي الاتجاهات كافــة، وأكياســاً بلاستيكية وأغلفة حلويــات تتدحرج على الأرض بعــد أن مزقتها الأسلاك الشائكة، وأوساخاً تتطاير في الهواء. كانت النفايات تجمع بفاعلية قبل نشوب الحرب، ليتم ذلك في أوقات متقطعة بعد التحرير، بما يشمل بقية الخدمات البلدية.

اصطف رتل طويل من العراقيين، بما يعادل مئات الأمتار، في الصباح، بين السابعة والحادية عشرة، منتظرين عبور نقطة التفتيش التي تتوسط الأسلاك الشائكة. تعين على كل منهم إبراز نوعين من الوثائق التعريفية، والخضوع للتفتيش ثلاث مرات، قبل

المضي قدماً. صرخ الجنود الأمريكيون فيهم، وهم يرتشفون الماء البارد بواسطة أنابيب بلاستيكية موصولة بمطرات في حقائب ظهورهم، قائلين: «ابقوا في الخلف!»، «تقدموا فرداً فرداً!»، «لِمَ تريد الدخول؟».

«لاستلام راتبي».

«للتقدم بطلب لوظيفة مترجم».

«احتُجِزَ ابني من قبل قوات التحالف».

اتسم الجنود باللباقة في بعض الأحيان، والفظاظة في أخرى.

خاطب رجل متوسط العمر أحد الجنود، على مرأى مني، في صبيحة أحد الأيام، قائلاً: «أحتاج المساعدة. اختطف ابني منذ خمسة أيام».

رد الجندي قائلاً: «يتعين عليك الذهاب إلى الشرطة. لا نستطيع مساعدتك».

عقب الرجل قائلاً: «ذهبت إليهم، ولكنهم لا يريدون المساعدة. لقد طلبوا رشوة».

عقب الجندي قائلاً: «هذه مسألة عراقية بالكامل. لا يمكننا فعل شيء لك».

عقب الرجل قائلاً: «ظننت أنكم أتيتم هنا لمساعدتنا. إن لم تساعدونا، فمن سيفعل؟».

فجر انتحاري حزامه الناسف في حشد من الحجاج الشيعة، في صبيحة أحد الأيام، بينما كانوا يتدافعون للدخول إلى مرقد الإمام الكاظم شمال بغداد. انتظر انتحاري ثانٍ عند الزاوية، قبل أن يفجر حزامه عند تدافع الناجين من الانفجار الأول. فجر انتحاري ثالث نفسه فيما بعد، ليعقبه رابع.

غطى الدخان ساحة المرقد وسط صرخات المحتضرين. سالت الدماء على الأرض، بينما طلب عدد من الشباب الذاهلين النجدة. عمل ناجون آخرون على وضع المصابين على عربات خشبية، قبل نقلهم إلى سيارات الإسعاف.

رأيت جثثاً مغطاة بملاءات بيضاء عند وصولي إلى الموقع بعد مضي ساعة. تبعثرت الأشلاء في كل مكان، بينما غصت الساحة بأحذية ونعال القتلى. رأيت العشرات من الجثث المكدسة خارج المشرحة لاحقاً -عند بلوغي المستشفى المحلي للتحدث إلى الناجين- مغطاة بملاءات زرقاء، تتعفن تحت أشعة الشمس. ما انفك أقرباء القتلى والجرحى ينشجون، بينما واصل الأطباء عملهم برباطة جأش. خاطبني أحدهم قائلاً: «لا جديد فيما حصل اليوم. نختبر هذه المآسي مرة في الأسبوع على أقل تقدير».

التقيت، في تلك الأمسية، مجموعة من موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة على مائدة العشاء في القصر. تحدثوا عن الدستور المؤقت الذي كانت مسودته قد وضعت لتوّها، بما يكفله من حقوق متزايدة. تحدث أحدهم قائلاً: «سيمثل نموذجاً للشرق الأوسط».

توقفت عن التفكير فيما رأيته سابقاً في ذلك اليوم، بينما كنت أستمع إلى ما يذكرونه عن عملهم. توجت القصص بنهايات سعيدة، في العادة، داخل المنطقة الخضراء. لم يذكر أحد التفجير أثناء العشاء. لم يبعد المرقد سوى بضعة أميال إلى الشمال من المنطقة الخضراء، بحيث لا يستغرق الوصول إليه أكثر من عشر دقائق بواسطة السيارة. هل تناهى ما حدث إلى مسامعهم يا ترى؟، هل علموا بسقوط العشرات قتلى؟ تحدث الرجل الجالس إلى يميني قائلاً: «نعم، رأيت شيئاً بخصوص ذلك على شاشة تلفاز المكتب، ولكنني لم أتابع التقرير برمته. كنت منشغلاً للغاية بالعمل على مشروع الديموقراطية خاصتي».

غطّ محمود أحمد في النوم بالرغم من ارتفاع صوت أذان الفجر. لم يعد من العمل حتى الثالثة صباحاً. اكتشف انقطاع الكهرباء في حيه عندما استيقظ في الثامنة. تذمر قائلاً لنفسه: «ليس مجدداً». لم يَعِ السبب الكامن وراء ذلك، حيث كانت الكهرباء متوافرة في بغداد قبل الحرب.

أدار الصنبور ليجد المياه مقطوعة. مثل ذلك أمراً جديداً. كانت المياه متوافرة على الدوام حتى إبان الحرب، وكان بالإمكان شربها، من الصنبور، لسلامتها.

تذمر الرجل ثانية، حيث كان بمقدوره التغاضي عن الاغتسال، لا احتساء الشاي في الصباح، وهو ما اعتاد القيام به.

كان محمود نحيلاً، متوسط الطول، ذا شعر أسود كثيف، وشارب خفيف، متزناً بمقدار من يفوقونه سناً، وهو الذي لم يتجاوز الثامنة والعشرين. كان يرتدي قميصاً مخططاً وسروالاً عريضاً رمادي اللون، ويحمل حقيبة جلدية.

امتلك محمود سيارة من طراز كابريس، تعود إلى العام 1988. بدلت الشمس الحارقة من لونها الأزرق الغامق لتجعله باهتاً. ابتاعها الرجل مستعملة، قبل بضع سنوات، من عضو بارز في حزب البعث التابع لصدام. اعترى محموداً الشك بأن السيارة سلبت من الكويت عقب اجتياحها من قبل القوات العراقية في العام 1990. لم يكن يشعر بأنه يملكها فعلياً كلما استقلها.

أدرك محمود، ما إن ركب السيارة، بأن الوقود قد نفد منها تقريباً. استقلها إلى أقرب محطة للوقود، حيث امتد رتل السيارات المنتظرة إلى ما يفوق الميل. تمتم الرجل، بعد أن تملكه الشعور بالاستياء، قائلاً: «لم يحدث ذلك قط تحت حكم صدام»، قبل أن يعض على لسانه، فرحاً بتحرره من الدكتاتور. تجسد التحرير في الحصول على صحن لاقط، ووظيفة براتب مرتفع، مما يعني القدرة على جمع ما يكفي من المال لتأمين المهر.

تجمع عدد من الفتية، الملوثين بالشحم، مقابل محطة الوقود، ملوحين بخراطيمهم استعداداً لبيع الوقود من صفائح بقربهم. كانوا يطلبون أربعة دولارات مقابل الغالون، بينما لم يتجاوز سعره في المحطة عُشر الدولار.

قرر محمود، في نهاية المطاف، ترك السيارة عند المنزل، واستقلال سيارة أجرة إلى العمل. كان من شأن ذلك أن يكلفه دولاراً، ولكنه لم يكن يملك خياراً آخر، بالنظر إلى إمكانية فقدان وظيفته إن لم يحضر.

تحدث الرجل قائلاً: «لو كنت أعمل لدى عراقيين، فلن تكون هناك مشكلة في التأخر، ولكن الوضع يختلف فيما يتعلق بالمنطقة الخضراء، حيث يتعين عليك الحضور في الوقت المحدد».

خاطب محمود السائق، حين استقل سيارة الأجرة، قائلا: «السلام عليكم. مركز المؤتمرات من فضلك».

مثل مركز المؤتمرات المدخل العمومي الرئيس إلى المنطقة الخضراء.

سأله السائق قائلاً: «آه، هل تعمل مع الأمريكيين؟».

رد محمود قائلاً: «بالطبع لا. تم اقتياد أخي من قبل القوات الأمريكية. أحاول معرفة مكانه».

عقب السائق قائلاً: «فليعنك الله».

رد محمود قائلاً: «إن شاء الله».

أخذت سيارة الأجرة - من طراز فولكسفاغن، ذات المقاعد البالية، المفتقدة إلى مكيف للهواء - تجوب شوارع المدينة. لم تكن إشارات المرور تعمل، بينما خلت الطرقات من شرطة المرور، وتعين على الأمريكيين إغلاق عدد من الطرقات الرئيسة. ألغت سلطة الائتلاف المؤقتة التعريفات الجمركية على العربات المستوردة، مما أدى إلى إغراق الأسواق بالسيارات الرخيصة المستعملة، والمستوردة من الدول الأوروبية كافة، كما بدت الحال عليه. لم تكن المسافة تستغرق، قبل نشوب الحرب، أكثر من عشر دقائق من منزل محمود، في بغداد الشرقية، إلى مركز المؤتمرات، لتزيد عن الساعة عقب قدوم الأمريكيين.

أصبح العراقيون، الذين اعتادوا التقيد بقواعد المرور، يقودون كما اتفق. تمثل أسوأ المنتهكين، بكل الأحوال، في الجنود الأمريكيين الذين كانوا يقودون عرباتهم وكأنهم يملكون المكان، ليقتحموا اتجاهات السير المعاكسة بسرعة كبيرة.

عبرت سيارة الأجرة نهر دجلة، قبل اجتياز ما يدعى «بوابة السفاح»، المدخل الشمالي للمنطقة الخضراء، حيث كان يتظاهر عدد من الشبان العاطلين عن العمل، مطالبين الأمريكيين بتأمين وظائف لهم. راقب اثنا عشر من الجنود الوضع عند البوابة، متأهبين لقطع الطريق بالأسلاك الشائكة، والدبابات إن حاول المتظاهرون اقتحامها.

اجتــازت سيارة الأجرة صفاً من المتاجر المزدحمــة، لتتوقف عند نقطة التقاطع الثانيــة. مثلــت تلك أقرب ما استطاع السائق الوصول إليــه. تعين على محمود متابعة طريقه إلى مركز المؤتمرات سيراً على الأقدام.

كنت قد التقيت محموداً للمرة الأولى قبل بضعة أيام، بينما كنا نصطف في الدور لدخــول المنطقة الخضراء. لم يخبرني عن طبيعة عملــه على الفور، بل حين أطلعته على بعض تفاصيل حياتي، ليقر بعمله مترجماً لدى الجيش الأمريكي.

تحادثنا بينما كنا ننتظر عبور ثلاث نقاط تفتيش منفصلة. تعين عليه إبراز نوعين من الوثائق التعريفية، قبل الخضوع للتفتيش أكثر من مرة.

تذمــر الرجل قائلاً: «يعاملونني كبقيــة الآتين من الشارع». كان يخاطر بحياته عبر العمل مع الجنود الأمريكيين ستة أيام في الأسبوع. تمثل أقل ما يمكنهم عمله، من وجهة نظره، في السماح له بالدخول عبر رتل منفصل، والخضوع لتفتيش واحد لا أكثر.

دلفنا إلــى داخل المنطقة الخضــراء عقب تجاوز نقطة التفتيــش الثالثة، لنسلك الطريق المؤدية إلى مركز المؤتمرات وفندق الرشيد.

لــم يدخل محمود قط –قبــل قدوم الأمريكيين– ما كان يمثــل المنطقة الخضراء إبان حكم صدام، مما جعله عاجزاً عن المقارنة بين ما كانت عليه في السابق ووضعها الراهــن. اعتاد الرجل، بــكل الأحوال، سلوك الطريق المطل علــى مركز المؤتمرات، ليكتشــف مدى التغيير الــذي لحق به. كان يمثــل –قبل الحرب، بالنظــر إلى اتساعه واحتوائــه علــى ثمانية مجازات– الطريــق الرئيس الواصل بين مركــز بغداد والطرق السريعــة المؤدية إلى الموصل في الشمال، والحلــة في الجنوب، والمطار في الغرب، ناهيك عن الفلوجة والحدود الأردنية. كانت السيارات تتدفق على الطريق، في حينه، بسرعة ستين ميلاً في الساعة، ليتم قطعه الآن بحواجز إسمنتية، وتصطف فيه ثلاث عربات «الهمفي» باعتباره موقفاً للسيارات.

تحدث محمود عن المنطقة الخضراء قائلاً: «لا تبدو كالعراق، بل أمريكة».

عقبـت قائلاً: إننـا لم نعتد رؤيـة عربات الهمفي مصطفة في الشوارع، ناهيك عن عدم إغلاق الطرق بالحواجز.

عقب قائلاً: «نعـم، ولكن يتعين عليك الإقرار بأن كل شيء متوافر هنا، الكهرباء، والميـاه، والطعـام. لا يمثـل ذلـك واقـع الحال فـي بقية أنحـاء بغداد، بـل الولايات المتحدة».

خاطبني مارك شرويدر – في إحدى المرات – قائلاً: «تتحسن الأمور حقيقة». لم يستطع الخوض في التفاصيل لما تتسم به من سرية، ولكنه أراد إعلامي بأن مؤشرات مخططاته البيانية آخذة في التصاعد.

سألته قائلاً: «هل تستطلع آراء العراقيين؟».

أجابنـي قائلاً: «يتولى شخص آخر القيام بذلك. لا أجري استطلاعات للرأي، بل أعمل على تحليل المعطيات».

تحـدث موظفون آخـرون مع العراقيين مطولاً، ولكن كثيراً مـن أولئك الأمريكيين افترضـوا، مخطئين أن المئات من العراقيين العاملين لدى سلطة الائتلاف المؤقتة، في الترجمة، والسكرتاريا، والخدمات، كانوا يمثلون الخمسة والعشرين مليون عراقي الآخرين. لم يجهل أولئك العراقيون أنهم كانوا يحظون بوظائف ممتازة، يجنون منها عشرة أضعاف ما يجنيه الموظف العراقي العادي، ولم يكونوا على استعداد للمخاطرة بتلـك الوظائف عبـر التذمر من الاحتلال، أو إخبـار الأمريكيين بعبثية مخططاتهم، بـل عملـوا، على النقيض من ذلك، على كيل المديـح لرؤسائهم، وإخبارهم ما يودون سماعه، ناهيك عن التقليل من أهمية أي من الأخبار السيئة.

قطـن بضعة آلاف آخرين من العراقيين المنطقـة الخضراء، في بيوت مطلة على شـوارع مشجرة، بين القصـر وفندق الرشيد. كانوا من الشيعـة والسنة العاملين في القصـر قبل وقوع الحـرب، وقد كانت رتبهم منخفضة للغايـة في حزب البعث بحيث لم يضطروا للهرب، أو يتعرضوا للاعتقال من قبل القوات الأمريكية. اعتادوا مغادرة المنطقـة باستمرار بغية العمل، والتسوق، وزيارة الأقرباء. تحدث بعضهم الإنجليزية

بطلاقة، وقد كانوا على استعداد لإطلاع الأمريكيين على حقيقة الأوضاع في بغداد. لم يكلف معظم الأمريكيين أنفسهم -مع ذلك، باستثناء الشواذ المغامرين من موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة- عناء التواصل مع جيرانهم العراقيين.

اطلع شرويدر وزملاؤه على التطورات في العراق عبر متابعة قناة «فوكس نيوز»، وقراءة مطبوعة «ستارز آند سترايبز» التي كانت تصدر في ألمانية، وترسل إلى بغداد يومياً، بينما استخدم بعضهم الإنترنت لتصفح جرائدهم المحلية. لم تحوِ الأخبار الواردة في تلك الوسائل، بكل الأحوال، كثيراً من المعلومات عن المنطقة الخضراء.

لم تخصص أي من النشرات الدورية لتغطية الوضع في المنطقة الخضراء، لتتناقل الألسن أخبارها وما يسري فيها من شائعات. افترض الجميع، حين تعرض أحد الضباط للطعن بينما كان متوجهاً إلى مقطورته في إحدى الليالي، أن أحد المتمردين قد ارتكب تلك الفعلة، ليكتشف المحققون سريعاً أن الجاني كان أمريكياً، دون إطلاع موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة على تلك الحقيقة، مما دفعهم إلى أخذ الحيطة أسابيع عدة.

لم يتمثل الخوف، داخل المنطقة الخضراء، من نشر الأخبار بقدر إفشاء الأسرار، حيث علقت كثير من الملصقات التي تحذر من القيام بذلك.

ضرب عدد من موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة بالتحذيرات عرض الحائط، ليغادروا الفقاعة بغية مقابلة العراقيين والتحدث إليهم، ناهيك عن تناول الطعام في بيوتهم، والتبضع في أسواقهم المحلية. باتت المنطقة الخضراء تمثل أرضاً خيالية في نظرهم، وقد أخذوا يدعونها: «مدينة الزمرد».